الثناء على الإمام الجصاص

وكتابه
أحكام القرآن

تأليف

دكتور

عبد المنعم علي إبراهيم القصاص

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية

(بنين)

بجامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أكرمنا بالقرآن وشرفنا بالنبى الخاتم سيدنا محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأحبابه ومن اتبع دينه إلى يوم الدين ..

وبعد

فلما كان علم التفسير هو مفتاح الكنوز التى احتواها القرآن لإصلاح البشرية وإعلاء كلمة الله فى الأرض ، والمفسرون هم رواد هذا العلم وجهابذته اهتم المسلمون بتراجم هؤلاء الرجال اهتماما منقطع النظير ، ومن أهم أسباب ذلك ارتباط هذا العلم بالدين نفسه ، فقراء القرآن ورواة قراءاته ورواة الحديث الشريف والمفسرون لابد أن يكونوا معروفين ومثقين لأن الناس تأخذ عنهم وتتعلم منهم ..

ومن هنا أردت أن ألقى الأضواء على علم من الأعلام الذين أسهموا فى نشر العلم والمعرفة والثقافة الإسلامية الأصيلة فى العصور الماضية لأن تراث كل أمة هو رصيدها الباقى الذى يعبر عما كانت عليه هذه الأمة من تقدم وحضارة الأمم بماضيها قبل أن تكون بحاضرها والإمام الذى تدور حوله هذه الدراسة هو الامام أحمد ابن على الجصاص ... وقد قسمت الدراسة بعد هذه المقدمة إلى أربعة فصول وخاتمة فان كنت قد وفقت فمن الله وإن كان هناك خطأ أو تقصير فمن نفسى واستغفر الله من ذلك وسبحان من تفرد بالكمال وهو حسبنا ونعم الوكيل ؟

دكتور / عبد المنعم على القصاص

الفصل الأول

نسبه : هو الإمام الفقيه المفسر الحجة الثبت الزاهد الورع إمام أصحاب الرأى فى وقته الذى كان يشار إليه بالبنان لعلو منزلته ورجاحة عقله . الإمام أحمد بن على أبو بكر الرازى الملقب بالجصاص نسبة إلى العمل بالجص ـ الجير ـ وقد أشتهر بهذا اللقب فى الأوساط العلمية .

مولده : ولد الإمام الجصاص فى بغداد الرشيد سنة خمس وثلثمائة هجرية فى العصر العباسى الثانى ، وهذا التاريخ هو ما ذهبت إليه جميع الروايات التاريخية بالنسبة لتحديد عام مولده .

وفاته : توفى هذا الإمام الفقيه فى يوم الأحد السابع من ذى الحجة سنة سبعين وثلثمائة عن خمس وستين سنة وصلى عليه الإمام أبو بكر الخوارزمى وخلق كثير .

شيوخه : أخذ العلم عن كثير من العلماء المشهورين بالعلم الذين لهم رسوخ فى العلم ومكانة فى الدين وشهرة فى الفقه والتقوى ، ومن هؤلاء الأساتذة الشيخ الوقور أبو الحسن الكرخى أحد أئمة المذهب الحنفى الذى ولد سنة ستين ومائتين هجرية ، وسكن بغداد ودرس فقه أبى حنيفة وانتهت إليه رئاسة أصحابه فى البلاد وكان متعبدا كثير الصلاة والصو مصبورا على الفقر عزوفا عما فى أيدى الناس ، وهذه نوعية ممتازة من العلماء الذين قضوا عمرهم فى طلب العلم ونشره فى الآفاق ، وحسبهم من ذلك رضا الله سبحانه وتعالى ولم تكن الدنيا أكبر همهم

ولا مبلغ علمهم ، لذلك ذاع صيتهم وانتشر علمهم واستحقوا الثناء عليهم ، ولقد اتخذ الجصاص شيخه الكرخى قدوة له فى العلم والتدريس والزهد والورع والأدب والأخلاق هذا وقد تعددت معارف وعلوم الجصاص لأنه لم يقتصر على فرع واحد من فروع العلم ، وإذا كان قد أخذ ما عند شيخه الكرخى من علوم ومعارف نراه قد أخذ علو مااللغة العربية ومعانى القرآن الكريم عن الاما م: إبراهيم بن السرى بن سهل أبو اسحاق الزجاج الذى كان على درجة عالية من الفضل والتدين الصادق وحسن الاعتقاد ، والزجاج صاحب المصنفات الحسنة الكثيرة ، « وكان إماما فى العربية من أهل الدين ، له كتاب معانى القرآن وكتاب ما فسد من جامع المنطق ، وكتاب الاشتقاق ، وكتاب القوافى ، وله العروض ، وكتاب الفرق ، وكتاب خلق الإنسان ، وكتاب مختصر فى النحو ، وكتاب ما ينصرف وما لاينصرف ، وكتاب شرح أبيات سيبويه ، وكتاب النوادر، وكتاب الأنواء »(١) .

ونخلص من هذا إلى أن الجصاص تتلمذ على كثير من الشيوخ الأماجد أمثال الشيخ الكرخى والإمام الزجاج و الامام المحدث المفسر عبد الباقى بن قانع الذى أخذ عنه الجصاص الحديث النبوى الشريف وعلومه فى المصطلح .

---

(١) إشارة التعيين فى تراجم النحاة واللغويين : تاليف عبد الباقى اليمانى ، تحقيق الدكتور عبد المجيد دياب ، ط مركز الملك فيصل للبحوث ، ١٢/١ .

قال صاحب الفوائد البهية فى تراجم الحنفية : « أحمد ابن على أبو بكر الرازى الجصاص كان إمام الحنفية فى عصره أخذ عن أبى سهل الزجاج عن أبى الحسن الكرخى عن أبى سعيد البردعى عن موسى بن نصير الرازى عن محمد واستقر ببغداد وانتهت إليه الرحلة وكان على طريق الكرخى فى الورع والزهد ، وبه انتفع وعليه تخرج وله تصانيف منها : أحكام القرآن »(٢) .

تلاميذه : إلتف الناس حول الجصاص وأخذوا عنه العلم وتأثر به كثير من العلماء فى عصره وفى غير عصره .

تأثر به وأخذ عنه العلامة الشيخ أبو عبد الله محمد بن يحيى الجرجانى ، والإمام أبو الحسن محمد بن أحمد الزعفرانى ، وخلق كثير وهؤلاء ممن عاصروه وأما من تأثر به فى غير عصره فقد تأثر به الإمام الشيخ محمد عبده فى موضوع السحر وهذا واضح فى أسوبه وتفسيره لسورة (قل أعوذ برب الفلق) فقد نفى أن يكون هناك سحر بالمرة خلافا لجمهور العلماء فى هذه المسألة .

وممن تأثر بالجصاص شيخنا المرحوم الدكتور عبد الله المشد ، فكان لا يعترف ولا يقر بأن السحر حقيقة وإنما هو خفة يد أو تمويهات وخداع .

* * *

(٢) الفوائد البهية في تراجم الحنفية : ٢٧/١ ، ط دار المعرفة .

الفصل الثانى

البيئة التى نشأ فيها الجصاص

نشأ الجصاص فى بيئة علم ومعرفة وحضارة وتقدم ، وكان عصره العصر الذهبى فى العلو موالفنون والرقى للأمة العربية والاسلامية لقد اعتنى الرشيد وأولاده من بعده والخلفاء والأمراء بالعلم والعلماء لذلك انتشرت المعارف فى بغداد والبصرة والكوفة والموصل وتبارى العلماء فى التاليف والتصنيف فاينما نظرت وجدت علماء أماجد فى التفسير والحديث والأصول واللغة والأدب والقراءات ، وحيثما ذهبت وجدت حلقات للعلم فى المساجد ودور العلم المنتشرة فى هذه البلاد العامرة التى كانت سببا من أسباب سعادة الأمة العربية والاسلامية حينا من الدهر إلى أن حلت بها النكبات وقضت عليها محنة التتار الأنجاس الذين جمعوا ذخائر العلم ونفائس الكتب والمخطوطات وألقوا بها فى دجلة والفرات ، ومن هنا نعلم أن البيئة التى نشأ فيها الجصاص كانت بيئة علم ومعرفة .

« وكل وحى فى الوجود يتأثر بالجو الذى يستنشق منه هواءه ، وبالبيئة التى ينمو بين أحضانها ، فإن البيئة تؤثر فى النفس الإنسانية تأثيرا بالغا ، دون تأثير أى عامل آخر من عوامل التربية ، والعصر الذى توافقه حياة عالم من العلماء أو مصلح من المصلحين له تأثير فعال فى طبع انفعالاته ، واتجاهات حياته . إلا أن هذا التأثير قد يختلف فى إنسان عن الآخر ، فقد يكون سويا متناسقا مع طبيعة العصر وخصائصه فيصلح المرء بصلاح عصره وينحرف بانحرافه »(٣) .

---

(٣) منهج ابن القيم : للدكتور محمد السنباطي ، ٢٧/١ ، ط مجمع البحوث الاسلامية .

« وهكذا فإنه لم يخرج عن أحكام البيئات الضالة إلا الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام وكذلك المصلحون والمجددون الذين ثاروا على ما توارثه عصرهم من عادات وتقاليد ليست من الحق في شيء »(٤) .

ولما كانت البيئة التى عاش فيها الإمام الجصاص بيئة علم وحضارة ويكفيه فخرا أنه ولد فى بغداد الرشيد عاصمة العلم وموئل العلماء فقد كانت بحق محط ارتحال العلماء من كل قطر ومصر فشرب الجصاص من معين العلم والذافع وارتوى من رحيقه ولم يكتف بذلك بل ارتحل إلى البصرة والكوفة وجالس العلماء فى البيئات المختلفة وأخذ عنهم طرائقهم واستفاد من الجو العلمى الذى كان من حوله .

وكان الامام الجصاص محبا للامام أبى حنيفة النعمان رحمه الله ويتعصب لمذهبه تعصبا شديدا لأنه علم أن أبا حنيفة كان حريصا على أن يطلع على أربعة أنواع من الفقه :

١ - فقه الخليفة عمر بن الخطاب المبنى على المصلحة .

٢ - فقه الامام عن بن أبى طالب المبنى على الاستنباط والغوص فى طلب حقائق الشرع .

٣ - علم الامام عبد الله بن مسعود المبنى على التخريج .

٤ - علم الامام عبد الله بن عباس رضى الله عنهما الذى هو علم القرآن الكريم .

« ولقد سأله أبو جعفر المنصور : يا نعمان عمن أخذت العلم ؟ قال رضى الله عنه عن أصحاب عمر عن عمر وعن أصحاب على عن

---

(٤) ابن تيمية : ١/٧ ، تأليف الدكتور محمد يوسف .

على ، وعن أصحاب عبد الله عن عبد الله ، وما كان فى وقت ابن عباس على وجه الأرض أعلم منه .

قال أبو جعفر : لقد استوثقت لنفسك »(٥) .

على هذا الدرب سار الامام الجصاص رحمه الله يستمع من العلماء وينتفع بما يقرأ ولم يكن مجرد ناقل عمن سبقوه دون تعليق أو اشارة ، أو معارضة بل نستطيع أن نقول انه كان ناقدا نافذ البصيرة محققا لما يكتب .

★ ★ ★

(٥) تاريخ المذاهب الفقهية ، للامام محمد أبو زهرة : ١٣٦/٢ ، ط دار الفكر العربي .

الفصل الثالث

مكانته العلمية ورحلاته فى طلب العلم

الإمام الجصاص كان إمام الحنفية فى وقته وإليه انتهت رئاسة الأصحاب وقد استقر فى التدريس ببغداد وانتهت الرحلة إليه وكان على طريق الإمام الكرخى فى الزهد وبه انتفع وعليه تخرج وبلغ من زهد الجصاص أنه خوطب فى أن يلى القضاء فامتنع وأعيد عليه الخطاب فلم يقبل القضاء فى عهد الطائع العباسى بل رغب فى التدريس واستمر يدرس العلوم النافعة لطلاب العلم .

إن الجصاص رحمه الله لم يكتف بطلب العلم فى بغداد بل أضاف إلى ذلك الانتقال إلى الكوفة والبصرة ونيسابور ، والذى يجب أن تعرفه عن هذا الامام أنه كان آية من آيات الله فى العلم النافع والفهم السليم وإليه يرجع كثير من الفضل على المذهب الحنفى لأن المشهور على ألسنة الناس وفى الأوساط العلمية أن هذا المذهب يقوم على الرأى فقط . فلما جاء الامام الجصاص قام بتدعيم المذهب بالأدلة الواضحة فى نظره رحمه الله ، وقد عد المنصور بالله الجصاص فى طبقات المعتزلة وفى تفسير الجصاص قرائن تدل على ذلك فى دراسة أحكام القرآن على أننا لا نقلل من شأن المعتزلة فقد قامت بالدفاع عن الاسلام فى وجوه الزنادقة والروافض والثنوية وكل الطوائف التى نفشت سمومها فى العقيدة الاسلامية ، واضطرهم ذلك إلى استخدام أساليب المنطق التى يستخدمها خصومهم لينازلوهم بأسلحتهم(٦) .

---

(٦) التفسير القرآني : ١٢٤/١ ، للدكتور رجب البيومي .

مؤلفـات الجصـاص

أكـرم الله الجصـاص فأعطـاه العلم النـافع فذاع صيته وفاق اقرانه وكان حجـة فى اللغـة والأدب والفقـه والتفسـير والحديث وعـلومه ، وكان حبه للتدريس عـاملا من عوامل التاليف والتصنيف ، فمن مؤلفـاته بايجـــاز :

١ ـ شرح مختصر الطحاوى ، وهو كتاب فى فقـه الأحناف ألفه الامام الحافظ الفقيه أبو جعفـر بن محمد بن سـلامه المصرى الطحاوى نسبة إلى طحـا قـرية من صعيد مصر ، وكان هذا الامـام فقيـه الحنفية ومحدثهم بمصر ، ولد سنة ٢٣٧ هـ ، وقد انتفـع الجصاص بهذا الكتاب وقام بشرحه لمـا فيه من الأهمية العلمية .

٢ ـ شرح مختصر الكـرخى .

٣ ـ شرح الجامع لمحمـد بن الحسن الشيبانى صاحب أبى حنيفة ، وهو كتاب فى الأحاديث الشريفة ، قا مالامـام الجصاص بشرح هـذا الجـامع .

وكان محمد بن الحسن الشيبانى قال عنـه الامام ابن كثيـر « محمد ابن الحسن بن عبد الله بن على بن محمـد بن عبد الملك أبو الحسن القرشى الأمـوى قاضى بغداد ، كان حسن الأخـلاق طلاب ءللحديث »(٧) .

٤ ـ شرح الأسـماء الحسنى .

٥ ـ كتاب فى أصل الفقه ، وكان هذا الكتاب مقدمة لأحكام القرآن .

٦ ـ كتاب فى أدب القضـاء .

٧ ـ كتاب أحـكام القرآن ، وهو كتاب فى التفسير .

---

(٧) البداية والنهاية لابن كثير : ٢٤٨/٦ ، ط الريان .

الفصل الرابع

دراسة حول منهج الجصاص

فى كتابه تفسير آيات الأحكام

يعد هذا التفسير من أهم كتب التفسير الفقهى خصوصا عند السادة الأحناف لأنه يقوم على تركيز المذهب الحنفى والدفاع عنه والكتاب مطبوع فى ثلاث مجلدات كبار ومتداول بين أهل العلم وهو يعرض لسور القرآن كلها ولكنه لا يتكلم إلا عن الآيات التى لها تعلق بالأحكام الشرعية فقط . والكتاب وإن كان يسير على ترتيب سور القرآن مبوب كتبويب الفقه ، وكل باب من أبوابه معنون بعنوان تندرج فيه المسائل التى يتعرض لها المؤلف فى هذا الباب .

قال ذلك شيخنا الدكتور محمد الذهبى رحمه الله فى كتابه التفسير والمفسرون ، وقال الدكتور محمد رجب البيومى :

« إن للتفسير الفقهى مكانه البارز لدى الدارسين وسيظل حيا متجددا ما بقيت شريعة الله وما تردد القرآن على لهوات القارئين » .

إلى أن قال :

« واجب المفسر الفقهى أن يكون واسع الأفق ، وأن يجمع كل ما قيل من النصوص الكريمة فى الموضوع الواحد ليقف وقفة المتمهل غير العجول ، فيقارن مقارنة ذكية ، كما عليه أن يعرف أسباب النزول وموعده الزمنى بالنسبة لكل نص على حده لأن معرفة الموعد الزمنى تسعف بتحديد التدرج المتوالى للحكم الشرعى .

وإذ اكانت مسألة الخمر قد تدرجت آيات تحريمها حتى انتهت إلى حكم قاطع فإن مسائل أخرى تشبه مسألة الخمر لم ينظر الفقهاء فى تدرجها الحكمى نظرة زمنية ليصلوا بالتفسير الفقهى إلى مرفئه الأمين ، ففيهم من أخذ بنص واحد جعله موضع النظر فانتهى إلى خطإ صريح »(٨) .

★ ★ ★

(٨) راجع التفسير والمفسرون للدكتور الذهبى ، ٤٣٨/٣ .
والتفسير الفقهى للدكتور رجب البيومى : ٦٠/١ .

الفصل الرابع

نماذج من أحكام القرآن للجصاص

النمـــوذج الأول :

(باب السجود لغير الله) جـ ١ ، ص ٣٧ :

قـال تعـالى : « **وإذ قلنـا للمـلائكة اسـجدوا لآدم فسـجدوا إلا إبليس أبى واسـتنكر وكان من الـكافرين (٣٤)** » .

قال الجصـاص : روى شعبة عن قتـادة أن الطـاعة كانت لله تعالى فى السجود لآدم أكـرمه الله بذلك وروى معمـر عن قتـادة فى قـوله : (**وخـروا له سـجدا**) ، قال : كانت تحيتهم السجود وليس يمتنـع أن أن يكون ذلك السجود عبـادة لله تعـالى وتكـرمة وتحبـة لآدم عليـه السـلام وكذلك سجود أخـوة يوسف عليهم السـلام وأهـله له وذلك لأن العبـادة لا تجـوز لغير الله تعـالى والتحيـة والتكـرمة جـائزان لمن يستحق ضربا من التعظيم ، ومن النـاس من يقول إن السجود كان لله وآدم كان بمنزلة القبـلة لهم وليس هذا بشىء لأنه يوجب أن لا يكون لآدم فى ذلك حظ من التفضيل والتكـرمة ، وظـاهر ذلك يقتضى أن يكون آدم مفضـلا مكـرما فذلك كظـاهر الحمـد إذا وقـع لمن يستحق ذلك يحمل على الحقيقـة ولا يحمـل على ما يطلق من ذلك مجـازا ، كما يقـال أخـلاق فـلان محمودة ومذمومة لأن حـكم اللفظ أن يكون محمولا على بابه وحقيقته ويدل على أن الأمـر بالسجود قد كان أراد به تكـرمة آدم عليـه السـلام وتفضيله قول إبليس فيما حكى الله عنـه (**ءأسـجد لمن خلقت طينـا قال أرأيتك هـذا الذى كـرمت على**) .

فأخبر إبليس أن امتنـاعه كان من السجود لأجـل ما كان من تفضيل الله وتكرمته بأمـره إياه بالسجود له ولو كان الأمـر بالسجود له على أنه

نصب قبلة لساجدين من غير تكرمة ولا فضيلة له لما كان لآدم فى ذلك حظ ولا فضيلة تحسد كالكعبة المنصوبة للقبلة وقد كان السجود جائزا فى شريعة آدم للمخلوقين ويشبه أن يكون قد كان باقيا إلى زمان يوسف عليه السلام ، فكان فيما بينهم لمن يستحق ضربا من التعظيم ويراد إكرامه وتبجيله بمنزلة المصافحة والمعانقة فيما بيننا وبمنزلة تقبيل اليد وقد روى عن النبى ﷺ فى إباحة تقبيل اليد أخبار وقد روى الكراهة إلا أن السجود لغير الله تعالى على وجه التكرمة والتحية منسوخ بما روت عائشة وجابر بن عبد الله وأنس أن النبى ﷺ قال : « ما ينبغى لبشر أن يسجد لبشر ولو صلح لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها) من عظم حقه عليها »(٩) .

انتهى كلام الجصاص .

التعليـــــق

أجمع المسلمون قاطبة على أن السجود لغير الله كفر أما عن السجود لآدم حيث أمر الله الملائكة به فهو ليس سجود عبادة ، وللعلماء فى شأنه ثلاثة أقوال :

القـــول الأول :

إن السجود كان لله تعالى وآدم كان كالقبلة ، ومن الناس من طعن فى هذا القول ولم يقبله .

القول الثانى :

خلاصته أن السجود كان لآدم تعظيما له وتحية كالسلام منهم عليه .

---

(٩) تيسير الوصول : ٢٥٤/٢ .

القـول الثـالث :

أن السـجود فى أصـل اللغـة هو الانقيـاد والطاعة والخضوع ٠

فالقول الأول ضعيف ومـردود لأن المقصود من هذه القصـة شـرح تعظيم آدم وجعـله مجـرد القبـلة لا يفيـد تعظيم حـاله ٠

والقول الثالث ضعيف أيضـا لأن السجود فى عـرف الشرع عبـارة عن وضـع الجبهة على الأرض فوجب أن يكون فى أصـل اللغـة كذلك لأن الأصـل عدم التغيير ، فإن قيـل السجود والعبـادة لغيـر الله لا تجوز قلنـا لا نسلم أن السجود من المـلائكة لآدم كان للعبـادة وإنما كان أمـر من الله للمـلائكة أن يفعـلوا ذلك إظهـارا لرفعتـه وكرامته ٠

وقال الامـام الطبرى : « وكان سـجود المـلائكة لآدم تكـرمة له وطـاعة لله لا سجود عبـادة لآدم »(١٠) ٠

ونرى الامـام الجصـاص قد ذكـر هذه الأقـوال بأسـلوب موجـز وزاد على ذلك أن السجود فى الشـرائع السـابقة كان جـائزا لغير الله ، فلمـا جاء الدين الخـاتم نسخ هذا الجـواز ، قال تعـالى : « **لا تسجدوا للشمس ولا للقمـر واسـجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون** »(١١)

وقـال تعـالى فى سـورة الانسـان : « **ومن الليـل فاسـجد لـه وسـبحه ليـلا طـويلا** »(١٢) ٠

---

(١٠) مختصر تفسير الطبرى : ٢٠/١ للصابونى ٠
(١١) سـورة فصلت آية : ٣٧ ٠
(١٢) سـورة الانسـان آية : ٢٦ ٠

النمـوذج الثـانى

من تفسـير أحـكام القـرآن للجصـاص

قال الله تعـالى : « واتبعـوا ما تتـلوا الشـياطين على ملك سليمان ومـا كفـر سليمـان ولكن الشـياطين كفـروا يعلمـون النـاس السـحر ومـا انزل على الملـكين ببـابل هـاروت ومـاروت وما يعلمـان من أحد حتى يقـولا إنمـا نحن فتنـة فلا تكفـر فيتعلمـون منهما ما يفـرقون به بين المـرء وزوجـه وما هم بضـارين به من أحـد إلا باذن الله ويتعلمـون ما يضـرهم ولا ينفعهم ولقـد علمـوا لمن اشـتراه مـا لـه فى الآخـرة من خـلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كـانوا يعلمـون »(١٣) .

التفسـير

قال أبو بكر : الواجب أن نقـدم القـول فى السـحر لخفـائه على كثير من أهـل العـلم فضـلا عن العـامة ثم نعقبـه بالكلام فى حـكمه فى مقتضى الآية فى المعـانى والأحـكام فنقول : إن أهل اللغـة يذكرون أن أصـله فى اللغـة لمـا لطف وخفى سببه والسـحر عندهم بالفتـح هو الغـذاء لخفـائه ولطف مجـاريه ، قال لبيـد :

أرنا موضـعين لأمـر غيب ونسـحر بالطعام وبالشراب

قيـل فيـه وجهـان : نعلل ونخـدع كالمسحور والمخدوع والآخـر نفدى وأى الوجهين كان فمعنـاه الخفـاء .

إلى أن قـال : وهذا هو معنى السـحر فى اللغـة ثم نقـل هذا الاسم إلى كل أمـر خفى سببه وتخيـل على غير حقيقتـه ويجـرى مجـرى التمـويه والخـداع ومتى أطلق ولم يقيـد أفـاد ذم فاعـله ، وقد أجرى مقيـدا فيما يمتدح ويحمـد روى : (إن من البيـان لسـحرا) .

---

(١٣) سـورة البقـرة آية : ١٠٢ .

قال الجصاص : وحدثنا ابراهيم الحرانى ، قال : حدثنا مصعب ابن عبد الله ، قال : حدثنا مالك بن أنس عن زيد بن أسلم عن ابن عمر قال : قدم رجلان فخطب أحدهما فعجب الناس لذلك ، فقال رسول الله ﷺ : (**إن من البيان لسحرا**) .

قال تعالى : (**سحروا أعين الناس**) ، يعنى موهوا عليهم حتى ظنوا أن حبالهم وعصيهم تسعى ، وقال تعالى : (**يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى**) ، فأخبر أن ما ظنوه سعيا منها لم يكن سعيا وإنما كان تخيلا ، وقد قيل : إنها كانت عصيا مجوفة قد ملئت زئبقا ، وكذلك الحبال كانت معمولة من أدم محشوة زئبقا ، وقد حفروا قبل ذلك تحت المواضع أسرابا وجعلوا آزاجا وملؤها نارا فلما طرحت عليه وحمى الزئبق حركها ، لأن من شأن الزئبق إذا أصابته النار أن يطير ، فأخبر الله تعالى أن ذلك كان مموها على غير حقيقة .

ثم قال الجصاص : الأحكام الشرعية :

الحكم الأول : هل للسحر حقيقة وتاثير فى الواقع ، نقول : ذهب الجصاص والمعتزلة وبعض أهل السنة إلى أن السحر ليس له حقيقة فى الواقع وإنما هو خداع وتمويه وتضليل ، وأنه باب من أبواب الشعوذة ، وهو عند هؤلاء العلماء على ضروب ، وهى :

التخييل والخداع ، وذلك كما يفعله بعض المشعوذين حيث يريك أنه ذبح عصفورا ، ثم يريك العصفور بعد ذبحه قد طار ، وذلك لخفة حركته والمذبوح غير الذى طار ، لأنه يكون معه انسان قد خبأ أحدهما وهو المذبوح وأظهر غيره .

ثانيا : الكهان والعرافة بطريق التواطؤ ، وذلك كما يفعله بعض العرافين والكهان ، حيث يوكلون أناسا بالاطلاع على أسرار

الناس حتى إذا جاء أصحابها أخبروهم بها ويزعمون أنها من أحاديث الجن والشياطين لهم وأنهم يتصلون بهم ويطيعونهم بواسطة الرقى والعزائم ، وأن الشياطين تخبرهم بالمغيبات فيصدقهم الناس ، وما هى إلا مواطأة مع أشخاص قد أعدوهم لذلك .

قال الجصاص : كانت أكثر مخاريق الحلاج بالمواطأة ، فكان يتفق مع جماعة فيضمن خبزا ولحما وفاكهة فى مواضع يعينها لهم ثم يمشى مع أصحابه فى البرية ، ثم يأمر بحفر هذه المواضع فيخرج ما خبىء من الخبز واللحم والفاكهة فيعدونها من الكرامات .

ثالثا : وضرب آخر من السحر عن طريق النميمة والوشاية والإفساد من وجوه خفية لطيفة ، وذلك عام شائع فى كثير من الناس .

رابعا : وضرب آخر من السحر وهو الاحتيال ، وذلك بإطعام الانسان بعض الأدوية المؤثرة التى لها تأثير على الفكر والذكاء .

ودق استدل الجصاص والمعتزلة على أن السحر ليس له حقيقة بعدة أدلة نوجزها فيما يلى :

١ - قوله تعالى : **(سحروا أعين الناس واسترهبوهم)** .

٢ - قوله تعالى : **(يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى)** .

٣ - قوله تعالى : **(ولا يفلح الساحر حيث أتى)** .

فالآية الأولى : تدل على أن السحر إنما كان للأعين فحسب ، والثانية تؤكد أن هذا السحر كان تخييلا لا حقيقة ، والثالثة تثبت أن الساحر لا يمكن أن يكون على حق لنفى الفلاح عنه .

المعارضون للجصاص والمعتزلة

استدل الجمهور من العلماء على أن السحر له حقيقة وله تأثير بالأدلة الآتية :

١ - قوله تعالى : (سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم) .

٢ - قوله تعالى : (فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه) .

٣ - قوله تعالى : (وما هم بضارين به من أحد إلا باذن الله) .

٤ - قوله تعالى : (ومن شر النفاثات فى العقد) .

فالآية الأولى دلت على إثبات حقيقة السحر بدليل قوله تعالى : وجاءوا بسحر عظيم) .

والثانية : أن السحر كان حقيقيا ، حيث أمكنهم بواسطته أن يفرقوا بين الرجل وزوجه ، وأن يوقعوا العداوة والبغضاء بين الزوجين فدلت على أثره وحقيقته . والآية الثالثة أثبتت الضرر للسحر ، ولكنه متعلق بمشيئة الله . والآية الرابعة تدل على عظيم أثر السحر حتى أمر أن نتعوذ بالله من شر السحرة الذين ينفثن فى العقد .

ومن هنا نعلم أن الخصاص وبعض الحنفية وابن حزم الظاهرى يقولون : إن السحر ليس حقيقة ، ورد عليهم الجمهور بأن له حقيقة .

قال الامام النووى : وهو الصحيح وعليه عامة العلماء ، وقال الدكتور موسى شاهين لاشين فى فتح المنعم :

« وعلى القول بأن للسحر حقيقة هل يقع به انقلاب عين بأن يتحول الشىء من حقيقة إلى حقيقة أخرى كأن يصير الجماد حيوانا مثلا وعكسه أو تأثيره فقط على الشخص المقصود بحيث يغير مزاجه ويؤثر فى حواسه ووجدانه .. هذا وإنكار السحر إنكارا كليا فهو مكابرة ، فالآيات المثبتة له لا يسهل تأويلها ، من ذلك قوله تعالى : (واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر) .

الخـاتمـــة

الحمـد لله رب العـالمين ، والصـلاة والسـلام على سـيدنا محمـد ابن عبد الله الصـادق الأمـين ، وبعـد

فهذه صفحات عن الإمـام الجصـاص لا ندعى أننى فيته حقـه ، ولكنها جهـد المقـل ، وعزم الكليل ، وحسبى أنني بذلت طاقتي والعـذر عند كـرام الخلق مـأمول .

أهم نتـائج البحث

١ ـ يعتبر الامام الجصـاص من النابغين فى اللغـة العربية والتفسـير ، والفقه الحنفى ، والحديث الشريف .

٢ ـ خـلو تفسـيره (أحـكام القـرآن) من الإسرائيليـات والبـدع والخـرافات .

٣ ـ ما يؤخـذ على الجصـاص :

(أ) استطراده لمسـائل فقهية بعيدة عن فقـه القـرآن وإنما أراد بذلك الانتصـار للمذهب الحنفى(١) .

(ب) تعصبه الشـديد للمذهب الحنفى مما جعله يتصف فى تأويل بعـض الآيـات حتى يجعلهـا فى جانبـه وهـذا كثيـر فى كتابه(٢) .

(حـ) حمـلة الجصاص على مخالفيه ، فكثيرا ما يرميهم بعبارات قاسية ، فهو ليس عف اللسـان مع الامام الشافعى ولا مع غيره من الأئمـة(٣) .

---

(١) انظر : أحكام القرآن ، ٢٧٤/١ .
(٢) انظر : أحكام القرآن ، ٤٧٢/١ .
(٣) انظر : أحكام القرآن ، ١٤٣/٣ .

(د) ويؤخذ عيه رحمه الله تأثره بمذهب المعتزلة ، وخاصة فى موضوع السحر(٤) .

(هـ) حملة الجصاص على الصحابى معاوية بن أبي سفيان ، فقد بدت البغضاء لمعاوية رضى الله عنه فى تفسيره : (أحكام القرآن) لقوله تعالى : (**أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير**) والآية التى بعدها ، فقد قال الجصاص وهذه صفة الخلفاء الراشدين وهم أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى رضى الله عنهم ولا يدخل معهم معاوية فى هؤلاء .

وكان الأولى بالجصاص أن يترك التحامل على هذا الصحابى الكريم(٥) .

وهذه المآخذ لا تقلل من شأن الرجل ولا تنقص من مكانته العلمية فكل إنسان يؤخذ من كلامه ويرد سبحانه من تفرد وحده بالكمال والجلال والجمال ، وختاما أقول : سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على سيد المرسلين والحمد لله رب العالمين .

أبو أسامة

د/ عبد المنعم القصاص

(٤، ٥) انظر : أحكام القرآن ١/٤٨ .

اهـم المـراجـــع بايجـاز

١ ـ القـرآن الكـريم ٠

٢ ـ تاريخ بغـداد للخطيب البغدادى ٠

٣ ـ تذكـرة الحفـاظ للذهبى ٠

٤ ـ الفوائد البهيـة فى تراجم الحنفيـة ٠

٥ ـ التفسـير والمفسرون للدكتـور الذهبى ٠

٦ ـ أحـكام القـرآن للامـام الجصـاص ٠

٧ ـ تفسـير آيات الأحـكام للشيخ الصـابونى ٠

٨ ـ طبقـات المفسـرين للداودى ٠

٩ ـ البداية والنهـاية للامـام ابن كثيـر ٠

١٠ ـ تفسـير الامـام الفخـر الـرازى ٠

١١ ـ تفسـير الامـام الألـوسى ٠

١٢ ـ منهج ابن القيم فى التفسـير ، للأستاذ السنباطى ٠

محتـويات العـدد

الموضـــوع	الصفحة
افتتاحيـة العـدد ... ... للأستاذ الدكتور **السيد رزق الطويل** عميـد الكلية	٣ ـ ٥
بحوث فى اللغـة العربية وآدابها	
القفطى مؤرخـا للنحـاة ... ... للأستاذ الدكتور **السيد رزق الطويل** عميـد الكلية	٩ ـ ٢٤
قضية عطف الظاهر على الضمير المجرور بين النحاة والقراء للدكتور / **محمد عاشور محمد** مدرس اللغويات بالكلية	٢٥ ـ ٨٨
الإغتفار فى الثوانى ـ دراسة نحوية ... ... للدكتور / **نادى حسين عبد الجـواد** مدرس اللغويات بالكلية	٨٩ ـ ١٣٩
التجريد بين ابن الأثير والخطيب القزوينى ... ... للدكتور / **أيوب عبد العزيز بدران** أستاذ البلاغة والنقد المساعد بالكلية	١٤١ـ١٨٠
فلسفة الجود عند حاتم الطـائى ... ... للدكتور / **محمـد حسن عبد اللطيف** مدرس الأدب النقـد بالكلية	١٨١ـ٢٢٧
بحوث فى التفسير وعلوم القـرآن	
ورثـة الفـــردوس ... ... للدكتور / **المحمـدى عبد الرحمـن** أستاذ التفسير المساعد بالكلية	٢٢٩ـ٢٥٦
أضواء على الامام الجصاص وكتابه أحكام القرآن ... ... للدكتور / **عبـد المنعم على القصاص** أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد بالكلية	٢٥٧ـ٢٨٠

رقم الإيداع بدار الكتب (٦١٩٤ / إبريل / ١٩٩١)